

المرجعية الثقافية القرآنية في شعر أبي تمام

The Qur'anic cultural reference in Abu Tammam's poetry

م.م حسين عبد الزهره زبون

كلية الآداب - الجامعة المستنصرية

M.M. Hussein Abdel Zahra is a customer

College of Arts - Al-Mustansiriya University

Emil: hoabzhm@uomustansiyah.edu

الملخص:

يحاول هذا البحث أن يبين المرجعية الثقافية القرآنية في شعر أبي تمام؛ إذ إنَّ أبا تمام؛ فضلاً عن أنَّه شاعر كبير؛ هو فاعل مؤثِّر في الثقافة العربية عموماً، وفي شعراء العربية خصوصاً على امتداد القرون التي تلت إلى يومنا هذا؛ مع علمنا أنَّ الثقافة العربية بعمومها اتَّسمت بالثقافة اللغوية؛ وقد تضمَّنت التثقف بالقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والشعر، وكلام العرب وأمثالهم، وأيامهم؛ وحال أبي تمام في التثقف حال أقرانه وأترابه من العلماء، والأدباء، والشعراء؛ تتقَّفوا بتلك الثقافات؛ لذا جاء هذا البحث ليبين تلك المرجعية الثقافية التي وردت في شعر أبي تمام؛ ليكون بعنوان ((المرجعية الثقافية القرآنية في شعر أبي تمام))؛ إذ إنَّ النصَّ بنية ثقافية تكتنز كثيراً من الأنساق التي تكشف لنا عن تفكير الشاعر في أمته، وعاداتها، وتقاليدها، وأيديولوجيتها في مختلف المجالات.

الكلمات المفتاحية: المرجعية، الثقافة، الهوية، المتلقي، الاحتجاج.

Abstract:

This research attempts to clarify the Qur'anic cultural reference in Abu Tammam's poetry. As Abu Tammam; In addition to being a great poet; He is an influential actor in Arab culture in general, and in Arabic poets in particular throughout the centuries that followed until the present day. Knowing that Arab culture in general was characterized by linguistic culture; It included acculturation in the Holy Qur'an, the noble Prophet's hadith, poetry, and the speech of the Arabs and their likes. And their days; Abu Tammam's state of education is the same as that of his peers and peers, including scholars, writers, and poets. Educate yourself in those cultures; Therefore, this research came to show the cultural reference that was mentioned in Abu Tammam's poetry. To be entitled ((The Qur'anic cultural reference in the poetry of Abu Tammam)); The text is a cultural structure that contains many patterns that reveal to us the poet's thinking about his nation, its customs, traditions, and ideology in various fields.

Keywords : reference, culture, identity, recipient, protest

التمهيد:

لا بدّ لنا من إطلالة يسيرة على مصطلح (المرجعيّات النّقائيّة) ومفهومها، ووقفه وجيزة على دلالاته، والموضوعات التي تندرج تحته؛ نظراً إلى تعدّد الرّؤى، وتضارب المنظرين في تحديد مساراتها؛ من أجل الولوج إلى صلب البحث، وتحديد متّجهاته.

فنقول إنّ في موروثنا النّقائيّ؛ ولا سيّما في الشّأن الدّينيّ والمعجميّ لم نجد شيئاً يدلّ على وجود مفردتيّ (المرجعيّة والمرجعيّات)؛ وعليه فهما مفردتان حديثتان؛ ولكنّ اللفظ (رجع) ومشتقّاته موجود كثيراً في القرآن الكريم؛ وبطبيعة الحال هو موجود في معجمات اللّغة؛ فقد ورد في العين أنّ (المآب: المرجع) (أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت ١٧٠هـ)، ١٩٨٨، الصفحات ٤١٧-٨)^(١)، والمرجع مصدر ميميّ، واسم مكان أو زمان؛ بحسب سياق الجملة الوارد فيها؛ والعرب: "بنوا المصدر على الفعل، كما بنوا المكان عليه؛ ... وذلك قولك: المرجع؛ قال الله عزّ وجلّ (إلى ربّكم مرجعكم)؛ أي: رجوعكم" (محمد، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، الصفحات ١٢١٦-٣)؛ وقد ذكر الجوهريّ أنّ (المرجع) في الآية المذكورة أنّها بمعنى الرّجوع، وأشار إلى أنّ مجيئه على زنة مفعّل شاذّ؛ لأنّ المصادر من فَعَلَ - يَفْعِلُ؛ إنّما

تكون بالفتح (المهندس، ١٩٨٤، صفحة ١٢٩). فالمرجعية والمرجعيّات أُشتقتا من الجذر (رجع)؛ والمعاني والدلالات تندرج تحت مصطلحهما.

أما الكلام بشأن الثقافة فهي السمات المميزة لإحدى مراحل التقدّم في حضارة من الحضارات، وتلمس فيها رقيّ العقل، والأخلاق، والدّوق السّليم في الأدب والفنون الجميلة؛ وهي رياضة الملكات البشريّة بحيث تصبح أتمّ نشاطاً واستعداداً للإنجاز (المهندس، ١٩٨٤، صفحة ١٢٩). وتعرّف أيضاً بأنها "الوحدة الكاملة للسلوك المتعلّم الذي ينتقل من جيل إلى الذي يليه.... أو هي نمط من التقليد أو العرف، حيث تنتقل الرموز من جيل واحد إلى الجيل التالي" (الصالح، صفحة ١٣٧).

ثم إنّ الخطاب الأدبيّ ليس نصّاً لغويّاً مجرداً يقوم على عناصر جماليّة ومدلولات فنيّة مختلفة؛ بل هو مفهوم ثقافيّ ذو معطىّ فكريّ؛ ومرجعيّة لها طيّات تاريخيّة تساعد على فهم دلالات النصّ؛ لأنّ النصّ الأدبيّ جزء من السياق التاريخيّ الذي يتفاعل مع مكونات الثقافة الأخرى؛ وعلى هذا فإننا حين نقرأ النصّ بهذه الحيثيّة؛ فإننا نتحصّل على إمكانات النصّ مع تحصيل الإمكانات الاستطائقيّة (الجماليّة)، وتشكّلاتها الممكنة. فـ: "في معظم نظريّات التحليل الثقافيّ المعاصر، تعتبر الثقافة رموزاً أو علامات لها معانٍ تحتاج إلى تفسير، والمعنى يتمّ تكوينه، أو تخليقه عن طريق انتشار الأفعال والأشياء التي تعتبر علامات تقوم بينها علاقات متبادلة" (زيد، ٢٠٠٩، :٢٠٠٩، صفحة ١). وعندئذٍ تكون الثقافة المحور الأساسيّ والمؤثّر في تكوين الهوية؛ فقد: "اختلفت وتنوّعت في مفهوماتها ومدلولاتها فقد انتقلت من المستوى المنطقيّ في قوانين الفكر وارتباط المحمول بالموضوع إلى المستوى الانطولوجي في مفهوم الوجود والميتافيزيقي، ثمّ المستوى الثقافيّ والاجتماعيّ الذي تنوّعت فيه إبراز عناصر مكونات الهوية من ثقافة، أو دين، أو عرف، أو أصل" (حافظ، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م، صفحة ٢١).

ولأنّ النصّ حادثة ثقافيّة؛ فإنّه يفتح على فضاءات أخرى في الثقافة، والأيديولوجيا، والتّاريخ بحيث تُلحظ هذه المعطيات من دون أن تكون متعاليةً على بنية الخطاب، بوصفها بنية نصيّة مثل اللغة المُشكّلة للنصّ؛ إضافةً إلى أنّها نموذج للتّمثيل، أو للفجوات النصّية (٢٠، ٢٠٠٩، صفحة ٢٠).

وبالثقافة تُوكّد العلاقة بينها وبين الشّاعر؛ والشّعر انبثاق لتلك العلاقة، وعلامة عليه؛ فكلّ كلمة أو عبارة في النّسق الشعريّ، تخضع لتجربة ثقافيّة يحيل إليها؛ فتتوسّع بمعناها وتتقدّم أو تتأخّر بقيمتها (٠، (د.ت)، صفحة ١٦٣). وبذلك يكون الشّعر في روحه وغايته دليلاً على ثقافة المجتمع وتثقيفه.

إذ إنّ ثقافة الشّاعر ومرجعيّاته المعرفيّة تظهر على سطح العمل الأدبيّ، ومضمونه ومبناه، ودلالته وتأثيره الفنّي؛ فالأدب عموماً، والشّعر خصوصاً ثمرة من ثمار الثقافة، ونتاج من نتاجاتها المعرفيّة والعاطفيّة (٩٦، ٢٠٠٠، صفحة ٩٦)؛

وبهذا يشترك المبدع والمتلقي بالمرجعيات الثقافية الراسخة في ذهن كلٍ منهما؛ لذا تأتي قصيدة الشاعر ونتاجه الإبداعيّ ليجسد صورة ثقافته، وعطاءه الفكريّ الذي يستحوذ على ذائقة المتلقي، ويشترك معه بتناقل ثقافيّ يؤسس علاقة ثقافية قوية تربط بينهما، وتقوم على أساس الفهم، والاستيعاب، والتأويل المشترك؛ فيغدو النصّ المنتج بمثابة نقطة ارتكاز والنقاء" (رستم، ٢٠٠٨، الصفحات ٦-٧).

وبذا يمكننا أن نواكب الرؤية التي تجعل المرجعيات الثقافية: "مجموع الخلفيات والأبعاد المعرفية والفكرية والثقافية التي ينطوي تحتها الخطاب الأدبي، وعادةً ما تكشف لنا هذه الخلفيات والأبعاد، عن أيديولوجيا وثقافة أمة من الأمم في العالم، أو مجتمع من المجتمعات، ... تكشف عن عاداتهم، لغتهم، تفكيرهم وغير ذلك" (وبوزياني، ٢٠١٩، صفحة ٢٥٧).

فإذا كانت الثقافة تعني العادات والأعراف التي تنظم المجتمعات والمعارف، والعلوم، والمعتقدات، والفنون، والآداب، والأحداث المكتسبة بالتعلم والذراية؛ فإن المرجعيات هي العودة إلى ذلك المخزون الثقافي واستحضاره والإفادة منه.

والشاعر يعتمد على مصادر عديدة في صياغة صوره الشعرية، منها الموروث الديني والتاريخي، فضلاً عن البيئة التي يعيش فيها، والطبيعة بعناصرها المختلفة وجزئياتها المتعددة، ولا شك في أن النتاج الأدبي نثرًا ونظمًا هو نتاج لثقافة الأديب؛ لذا: "فإنّ الأدب ثمرة من ثمرات الثقافة تتبلور فيه طائفة من المشاعر والأفكار؛ ومهمتنا في دراسة الأدب أن نحلّ هذه الآثار الأدبية فنبيّن فيها العناصر الثقافية التي تعاونت عليها؛ فنتناول الأدب تناوّلًا مباشرًا فلا نقف عند رصد الظواهر وتسجيلها ولكن نردّها إلى أصولها الأولى في السياقات الثقافية التي كانت تلفّ العالم الإسلاميّ التي أثّرت في الأساليب والموضوعات" (العلي، ٢٠٠٠، صفحة ٩٦).

ثم إنّ النصّ الشعريّ لأيّ أديبٍ وليدٌ لمرجعيات ثقافية يمتلكها الشاعر، ويشترك مع كثير من الشعراء في الأخذ من تلك المرجعيات الثقافية؛ ممّا يحدث تشابهًا في العمل الأدبي بين الشعراء. وعندئذٍ يحدث التأثير والتأثر فـ: "هو محاولة بقصد أو غير قصد من الشاعر للإفادة من نتاج غيره أسلوبًا وموضوعًا وفكرة وبناءً" (المصلاوي، ٢٠٠٦، صفحة ٢١).

لذا حتّى كثير من النقاد على أهميّة تضمين النصّ لنصوص سابقة عليه؛ لتقوية البنية الدلالية، والتمازج بين الحاضر والماضي (الشافعي:، ٢٠٠٣، صفحة ٣١٢).

الإجراء :

فالقرآن الكريم هو المعين الثّر للفصاحة، والبلاغة، والبيان في الثّراث العربيّ؛ فقد أثر تأثيراً كبيراً في تكوين معاني الشعراء، والأدباء، والخطباء، وألفاظهم، وصورهم، وصفلها؛ إذ استلهموا على مرّ القرون كثيراً من الألفاظ والمعاني من آياته وقصصه، وحكمه وأحكامه، ووعدّه، وتبشيره، ونذيره، ولوّنوا أشعارهم بصورة المادّيّة الجميلة، وأفكاره العظيمة المتميّزة^(١٣٣) (السمرّة، ٢٣، العدد ٢، ٢٠٠٥).

وكذلك كان الدّين الإسلاميّ عميقاً في نفوس كثيرٍ من الشعراء؛ فغدّت أشعارهم صورة لما في نفوسهم من تقوى، وورع، وزهد؛ فالدين اللّبنة الرّكيزة الأولى في بناء شخصيّة الإنسان في المجتمع؛ فوجوده من وجود دينه؛ وهي خصيصة يتّسم بها جميع البشر؛ كلّ بحسب معتقده؛ وتوظيف النّسق الدّينيّ لا يقوم على تقديم أنموذج مماثل، أو مشابه لما هو مقدّس؛ وإنّما لتقديم تصوّر حضاريّ مرتبط بسياق فكريّ معيّن؛ فهي ثقافة واعتقاد تؤمن بها أمّة، وتقّدسه على أنّه ذو قيم عُلّيا، ومعتقدات دينيّة خاصّة، وتشكّل تلك الأنساق الدّينيّة مجموعة معطيات؛ لأنّه نسق يشتمل على صنوف العبادات، والمناسك، والطّقوس، والشّعائر، وتجلّيات للفكرة الدّينيّة^(العبدوني، ٢٠٠٦، صفحة ٣).

وعصر أبي تمام لا يختلف عن القرون التي سبقته، والتي تلتها من حيث التّثقف بالقرآن الكريم لمن يريد أن يتثقف به في تلك الحقبة؛ فليس بإمكان أيّ مثقّف أن يستغني عن قراءته، وفهمه، وحفظه؛ فهو مصدر الثّراث الدّينيّ، وينبوع العقيدة الإسلاميّة؛ وإنّ لم يكن طائفة كبيرة من المثقّفين غير متديّنين؛ والشّعراء هم عليّة المجتمع من حيث الثّقافة؛ لذا استثمروا في كلّ مكان وزمان في صبّ معانيهم شعراً، وإثراء بُناهم، وإضفاء الحُسن عليها، وتعميق تجاربهم فيها.

إنّ المرجعيّات الثّقافيّة لشعر أبي تمام وُسّمت بميسم خاصّ ميّزه عن غيره من حيث النّتاج والأفكار؛ فإنّ لشعره مرجعيّات ثقافيّة مختلفة عوّل عليها، واستحضرها عند النّظم؛ لذا تنوّعت في قصائده. وقد اغتنى شعر أبي تمام بمرجعيات ثقافيّة كثيرة؛ ولكنّا نقتصر على واحدة منها؛ لشيوعها في شعره بحسب اطلّاعنا على ديوانه؛ وهي: المرجعيّة القرآنيّة والدّينيّة؛ التي أضفى عليها القرآن الكريم إهابه.

وقد تأثّر أبو تمام بالقرآن الكريم؛ فظهرت آثاره واضحة في شعره؛ وذلك باستخدامه معانيه وصورة^(بهجت، ١٩٧٥، صفحة ١٣٤). ويعجب البهبيّتي من كثرة تمثّله بالقرآن الكريم؛ فيقول: "لا أعرف شاعراً من شعراء العربيّة؛ تأثّر بالقرآن الكريم تأثّر أبي تمام؛ فإنّ القارئ لا يكاد يمضي في الدّيوان حتّى يعثر بين خطوة وأخرى بشاعر كأنّما يضع

نُصِبَ عَيْنِيهِ النَّقْلُ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ" (السمرى، ٢٠١٨، صفحة ٦٧). ولذا تنوّعت مرجعيّات أبي تمام من القرآن الكريم؛ فوظّف كثيراً من ألفاظه في شعره؛

ومن ذلك ما رجع فيه أبو تمام إلى ألفاظ القرآن الكريم قوله (أوس، د.ت)، الصفحات ٣-٢٦٥-٢٦٦):

أَخْرَجْتَهُمْ بَلْ أَخْرَجْتَهُمْ فِتْنَةً سَلَبْتَهُمْ مِنْ نَصْرَةٍ وَنَعِيمٍ

نُقِلُوا مِنَ الْمَاءِ النَّمِيرِ وَعَيْشَةٍ رَعْدٍ إِلَى الْغُسْلَيْنِ وَالزُّقُومِ

فحين صوّر أبو تمام أعداء ممدوحه؛ بعد أن هزمهم، وما تبع هزيمتهم من انتقالهم من حال تكبرهم، وتجبرهم، وتنعمهم إلى حال ذلهم، وهوانهم، وشقائهم؛ رجع إلى قوله تعالى: {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِِهِمْ نَصْرَةَ النَّعِيمِ} (القرآن الكريم، الصفحات سورة المطففين الآية ٤٣-٤٤)، وقوله تعالى: {إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ} (القرآن الكريم، الصفحات الدخان : ٤٣-٤٤) وقوله تعالى: {فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلَيْنِ} (القرآن الكريم، الصفحات الحاقة : ٣٥-٣٦).

ومما رجع فيه إلى بعض الألفاظ القرآنية في قوله (أوس، د.ت)، الصفحات ١-٦٤):

تَرْكُؤُ مَوَاعِدُهُ إِذَا وَعَدُ امْرِئٍ أُنْسَاكَ أَحْلَامَ الْكَرَى الْأَضْغَاثَا

لَمْ آتِهَا مِنْ أَيِّ وَجْهِ جَنَّتْهَا إِلَّا حَسِبْتُ بُيُوتَهَا أَجْدَانَا

فحين استعطف أبو تمام ممدوحه؛ بأنّ عسر الحال ألمّ به، وبقومه، أنّ أهل اليسار بخلوا بما في أيديهم؛ كانت مرجعيّته النّقاوية في هذين البيتين بعض الألفاظ القرآنية من قوله تعالى: {قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ} (القرآن الكريم، صفحة يوسف : ٤٤)، ومن قوله تعالى: {خُشْعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ} (القرآن الكريم، صفحة القمر : ٧)؛ ليؤثّر في ممدوحه؛ ممّا أضفى على بيتيه جمالاً وعمقاً.

ونجد أبا تمام في قوله (أوس، د.ت)، الصفحات ٤-٢٥٠):

عَيَاشُ إِنَّكَ لِلنَّيْمِ وَإِنِّي مَذْ صِرْتَ مَوْضِعَ مَطْلَبِي لِلنَّيْمِ

السُّحْتُ أَطِيبُ مِنْ نَوَالِكَ مَطْمَعَا وَالْمُهْلُ وَالْغِسْلَيْنُ وَالزُّقُومُ

يرجع إلى قوله تعالى: {كَانُمُهْلٍ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ} (القرآن، صفحة الدخان: ٤٥)، في هجائه لهذا المهجور؛ وهو عيَّاش بن لهيعة (عساكر، الصفحات ٦٠-٣٨٨ أبو المغيث ولي إمرة دمشق للمعتصم)؛ إذ يفضِّل السَّحت، وشرب المهل على عطاء ذلك المهجور؛ إحياءً منه بشدة بخل ولؤمه.

ويهجو موسى بن إبراهيم الرافقي (أوس، (د.ت)، الصفحات ٤-٣١١)، ويعرِّض به؛ بقوله له: إِنَّ اللَّثَامَ قَدْ كَثُرُوا، والأحساب استوصلت واختفت، وكذلك العلياء والآداب، وكأنَّ يوم البعث قد جاء فجأة؛ يقول أبو تمام:

فَاضَ اللَّثَامُ وَغَاصَتِ الْأَحْسَابُ وَاجْتَنَّتِ الْعُلَيَاءُ وَالْآدَابُ

فَكَانَ يَوْمَ الْبُعْثِ فَأَجَاهُمْ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ وَلَا أَسْبَابُ (أوس، (د.ت)، الصفحات ٤-٣١١)

فهو يؤكد هذا المعنى برجوعه إلى ألفاظ قرآنية؛ وهي (تغيض)، (اجتنبت)، (يوم البعث)، (أنساب)؛ من الآيات الكريمات: {اللَّهُ يَغْلُمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ} (القرآن، صفحة الرعد: ٨)، و{وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ} (القرآن، صفحة إبراهيم: ٢٦)، {فَهَذَا يَوْمُ الْبُعْثِ وَلَكِنِّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (القرآن، صفحة الروم: ٥٦): {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ} (القرآن، صفحة المؤمنون: ١٠١).

ويصور أبو تمام سياسة ممدوحه أبي سعيد الثَّغري (أوس، (د.ت)، صفحة ٢٢٧؛ الصولي) في جهاده بوجه الروم في قوله:

قَدْ رَأَوْهُ وَهُوَ الْقَرِيبُ بَعِيدًا وَرَأَوْهُ وَهُوَ الْبَعِيدُ قَرِيبًا

فيختزل أبو تمام حالات ممدوحه التي التبست على أعدائه في القرب منهم والبعد عنهم؛ الذين يرونه على قربه منهم بعيداً لمناعته، ويرونه قريباً منهم لعزمه وهجومه الشديد؛ ببيت واحد رجع فيه إلى قوله تعالى: {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا} (القرآن، الصفحات المعارج: ٦-٧).

ويعاتب أبو تمام عيَّاش بن لهيعة؛ بقوله (أوس، (د.ت)، الصفحات ٤-٤٤٨):

لَيْسَ يَدْرِي إِلَّا اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ أَيُّ شَيْءٍ تُطَوِّي عَلَيْهِ الصُّدُورُ

وَيَقُولُونَ إِنَّكَ الْمَرْءُ بِالْغَيْبِ ————— بِ مُحَامٍ عَنِ الصَّدِيقِ نَصُورُ

فَإِذَا جِئْتُ زَائِرًا حَجَجْتُ وَجْهَ ————— هَكَ عَنِّي كَابَةٌ وَبُسُورُ

لأنه يرى منه خلاف ما يسمع عنه؛ فتكون مرجعيته الآية الكريمة ليعبر عما يجول بخاطره:

{وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ* أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} (القرآن، الصفحات الملك ١٤-١٣):

ويمدح محمد بن يوسف في قوله (أوس، د.ت)، الصفحات ٤٢-٢):

لَبِسْتُ سُوءَ أَقْوَامٍ فَكَأَنُّوا كَمَا أَغْنَى التَّيْمُّ بِالصَّعِيدِ

ويجعل أبو تمام علاقة بين الثقافة الفقهيّة العامّة للمجتمع وبين كرم ممدوحه الوافر؛ وبين نفسه حين اضطرّ إلى إتيان غيره؛ فلم يرضه عطاؤهم؛ فاقتنع بالأقلّ منهم؛ كمن يقتنع بالتيمم من لم يجد ماءً؛ وذلك برجوعه إلى قوله تعالى: {أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا} (القرآن، صفحة النساء: ٤٣).

ومن الأمور الدينيّة والقرآنيّة التي رجع إليها أبو تمام واستثمرها استثماراً مدروساً ودقيقاً؛ لكي تؤدّي خدمة معنويّة في النصّ؛ هي: (الخلافة)، و(حفظ الجار) الواردة في قصيدة (الحقّ أبلج...) لما فيها من أحداث تاريخيّة وأحداث وقعت في عصره؛ ولا سيّما قصّة الأفشين، وما جرى بينه وبين المعتصم العباسيّ؛ يقول أبو تمام (أوس، د.ت):

الْحَقُّ أْبْلَجُ وَالسُّيُوفُ عَوَارٍ = فَحَذَارٍ مِنْ أَسَدِ الْعَرِينِ حَذَارٍ

مَلِكُ غَدَا جَارِ الْخِلَافَةِ مِنْكُمْ = وَاللّٰهُ قَدْ أَوْصَى بِحِفْظِ الْجَارِ

إذ نلاحظ أنّ أبا تمام رجع إلى قضية الخلافة منذ نشأة دولة الإسلام؛ وما جرى بسببها من حروب وأفكار مختلفة في ما بينها على مرّ تاريخ الإسلام؛ لذا لجأ أبو تمام إلى إيجاد مسوّج شرعيّ للمعتصم؛ والمسوّج الشرعيّ هو أنّه جار الخلافة، والله قد أوصاه بحفظ جاره؛ فقد قال أبو تمام هذه القصيدة لإضفاء القدسيّة على عمل المعتصم؛ فرجع إلى قوله تعالى {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ} (القرآن، صفحة النساء ٣٦)؛

ثمّ أكّد أبو تمام مفهوم النعمة، ووظّف معناه في مرجعيته من أجل تعميقه وتعميمه، يقول (أوس، د.ت):

كَمْ نِعْمَةٍ لِّلّٰهِ كَانَتْ عِنْدَهُ = فَكَأَنَّهَُا فِي غُرْبَةٍ وَإِسَارٍ

كُسِبَتِ سَبَائِبُ لَوْمِهِ فَتَضَاءَلَتْ = كَتَضَاوُلِ الْحَسَنِاءِ فِي الْأَطْمَارِ

وهذان البيتان رجع فيهما إلى قوله تعالى: {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ} (القرآن، صفحة النحل: ٨٣)؛ ليبين أن الأفشين كان ذا نعم كثيرة؛ ولكنه كان مستأثراً بها لنفسه؛ لأنه ينكر كونها عنده، ويجعلها بلوؤه؛ تتضاءل كالفتاة الحسنة التي يخفي حسناتها وجمالها ارتداؤها الأظفار (الملابس البالية)،

ثم يرجع بالحديث عن المنافقين؛ الذين أرادوا من وراء عملهم شق عصا المسلمين، وتفريق كلمتهم، حتى نزل الوحي مبلّغاً عن رب العزة ما يخفي المنافقون في أنفسهم من وراء هذا العمل؛ ونحن بذلك ننتبين النص الغائب؛ إذ إن نعرف معنى المرجعية الثقافية فيه أنه تأكيد لصورة المنافق، واستغراق فيها، ومنه نفهم أفعال الأفشين التي مارسها من أجل خدمة الدولة والخليفة العباسي كانت بمثابة عمل حق في ظاهره؛ ولكنه حق أريد به باطل، ثم شبه عمل المعتصم برده على عمل الأفشين بعمل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) برده على المنافقين؛ إذ يقول أبو تمام في رد الخليفة على أعمال الأفشين (أوس، د.ت: ٢):

حَتَّى إِذَا مَا اللَّهُ شَقَّ ضَمِيرَهُ = عَنِ مُسْتَكِنِ الْكُفْرِ وَالْإِصْرَارِ

وَنَحَا لِهَذَا الدِّينِ شَفَرَتُهُ انْتَنَى = وَالْحَقُّ مِنْهُ قَانِي الْأَظْفَارِ

فهذان البيتان رجع فيهما إلى ما نزل الوحي في الكشف عما بسريرة الأنفس المتربصة بالإسلام ووحدة المسلمين؛ فإن مرجعيتهما قوله تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} (القرآن، صفحة الأنبياء: ١٨)؛ فهذه الآية الكريمة هي مرجعية لقوله: "والحق منه قاني الأظفار" التي تثير في الذهن صورة "فيدمغه"، غير أننا نفهمها من حيث المعنى، وليس من حيث اللفظ؛ فما فعله المعتصم بالأفشين كأنه غضب من الله.

ومما رجع فيه أبو تمام قصة السامري والعجل الذي صنعه لقومه؛ وكذلك قصة ثمود؛ وهما من قصص القرآن الكريم؛ من أجل أن يحرض المعتصم على استئصال شأفة الأفشين والقضاء على قومه؛ إذ يقول (أوس، د.ت:):

يَا قَابِضًا	يَدَ	آلِ	كَأُوسٍ	عَادِلًا =	أَتْبَعَ	يَمِينًا	مِنْهُمْ	بِيسَارٍ
أَلْحَقْ	جَبِينًا	دَامِيًا	رَمَلْتَهُ =	بِقَفَا	وَصَدْرًا	خَائِنًا		بِصَدَارٍ
وَأَعْلَمْ	بِأَنَّكَ	إِنَّمَا	تُلْقِيهِمْ =	فِي	بَعْضِ	مَا	حَقَرُوا	مِنَ الْأَبَارِ

لَوْ لَمْ يَكُنْ لِلْسَّامِرِيِّ قَبِيلُهُ = مَا خَارَ عِجْلُهُمْ بِغَيْرِ خَوَارٍ
وَلَمْؤُودُ لَوْ لَمْ يُدْهِنُوا فِي رَبِّهِمْ = لَمْ تَدَمْ نَاقَتُهُ بِسَيْفٍ قُدَّارٍ

ففي هذا النصّ تقدّم المرجعية القرآنية خدمةً للاحتجاج؛ ففي البيت الثالث نجده يطمئن المعتصم أنّ عمله في الأفشين وفي قومه عمل شرعيّ؛ فأبو تمام بتحريضه للمعتصم يزيّن له هذا المسوّغ الشرعيّ؛ فكما أنّ السامريّ ما كان له أن يصنع العجل الذي عبّده قوم موسى لو لم تكن القبيلة توافقه على ذلك، بل تشجّعه؛ فاستحقّوا العقاب بالتيه والتشريد؛ فالمرجعية جاءت هنا للمحااجة، وكذلك ثمود مع صالح (عليه السلام)؛ فقد طلبوا منه آيةً بينةً يثبت بها نبوّته؛ فقال لهم: هذه الناقة لها شرب يوم معلوم، ولكم شرب يوم، وحذّره من الاقتراب منها، أو الفتك بها، لكنهم أجمعوا أمرهم على التربص بها؛ مستخدمين شتى الوسائل بما في ذلك إغراء النساء، إلى أن جرى لهم ذلك على يد قدار بن سالف. والملخص أنّ ما شجّع قدار على عقر الناقة قومه، ولو لم يشجّعه على ذلك لما فعله؛ فاستحقّوا العذاب!!

وبعد هذا العرض اليسير لنماذج متناثرة من ديوان أبي تمام نقول قبل التحليل؛ إنّ القرآن الكريم والدين الإسلامي يفرضان حضورهما على العقل الجمعي الإسلامي؛ إذ لم يكن شيئاً طارئاً أو هامشياً؛ بل هو قوّة لها حضور بالفعل يوازي وجود الإنسان في هذه الحياة، ويرتبط الدين بالبنية الثقافية، والنفسية، والاجتماعية (بدوي، ٢٠٠٩، صفحة ٣٨)؛ فهما باجتماعهما القرآن والدين مرجعية ثقافية اتخذت أشكالاً متنوعة في شعر أبي تمام؛ فقد وظّف الشاعر الدلالات النصّية التي تتضمّن دلالة جديدة يجسّد فيها الشاعر رؤيته تجاه الحياة التي عاشها؛ فقد أعاد تشكيل بناء تجربته الشعرية؛ لتكون تمازجاً ما بين الموروث الديني المتخفي تحت عباءة احتياجه إلى بيان وجوده الشخصي وإثباته، وبين الموروث الديني الظاهر فوق السطح من حيث نظام الخلافة التي يريدها أن تكون موافقةً للقرآن الكريم والدين الإسلامي النقي، وليس ما شابّه من أخطاء وانحرافات عن السبيل الأقوم؛ وذلك بإعادة طرح الأمر المقدّس بالألفاظ القرآنية، والأحكام الشرعية والفقهية على وفق رؤيته الخاصة؛ المؤمن بها؛ التي تمنح نصّه الشعري رؤية جديدة.

إذ إنّ الشاعر يحاول تجسيد فكرة التماهي التي عبّر عنها الفكر الديني، وما تضمّنته من آيات قرآنية مثّلت مرجعاً ثقافياً ضارباً في أعماق نفسه، متنوّع الدلالات والقيم، على طريق فكرة النسق الديني الذي يمثّل الرحمة والرأفة بالناس؛ ولا سيما في استلهام الشاعر.

وكذلك وظّف أبو تمام محتوى هذه المرجعية الثقافية؛ بتصويره عمق الصراع بين الذات والآخر؛ لما يحمله مثل هذا النسق الثقافي من مردودات نفسية مشتركة تمكّن الشاعر من ترغيع مشاعره، وإثارة قارئه؛ لأنّ النصّ الديني

في مجمله بنية أساسية في ثقافة القارئ العربي، ومن ثمّ يستطيع من خلال التناصّ الدينيّ أن يقدّم رسالته بصورة أفضل؛ لأنّه ينطلق من قاعدة مشتركة بينه وبين القارئ^(١) (حمزة، ٢٠١٢، صفحة ٢٢)؛ فباستتقاق محتوى القصص الدينية يجسّد الشاعر معاناته في زمنه الذي تبدّلت فيه القيم، وأصبح للباطل سطوة؛ فبحث عن أصحاب المواقف الطيبة؛ ليمدحهم؛ فينصروا أهل الحقّ؛ فلا بدّ في هدى هذا أن يشعر القارئ بالأمل، ويتعاطف مع الشاعر؛ ممّا يفتح الباب واسعاً لقصدية الخطاب المنضوي تحت سياق ثقافيّ قارّ يعمل على منح النصّ فاعليّة وحيويّة قادرة على الخلود لنصوص كهذه.

وفي هذه النصوص التي اخترناها يبدو لنا أنّ المرجعية القرآنية والدينية تحمل دلالات وإشارات ثقافية أخرى؛ لأنّها بنية قارة في الفكر الدينيّ المجتمعيّ؛ ففي الثقافة الدينية المجتمعية تشكّل نسقاً ثقافياً شديد الصلة بتراث ذلك الدين؛ والشاعر يستلهم قصصاً من هذا النسق الدينيّ، ويحوّل دلالاتها بإحساسه الشعريّ، ويضفي عليها روحها الدينيّ؛ ليجعلها تحاكي واقعاً يومياً يعيشه، ويجسّد كلّ ما فيه من ذاتيّة؛ إذ إنّ نصّ الشاعر هنا يجسّد طريقة مغايرة لما هو في نسق الذاكرة الجمعيّ؛ فهو في هذا النصّ من يحنّ المجتمع؛ فالقرآن الكريم في الذاكرة الجمعية للمجتمع الرّمز الأول له؛ ففي إشارات واضحات إلى تفاصيل قصّة النبيّ صالح (عليه السلام) مع قومه، وما فعلوه به من أدّى وتعنّت، وتعذيب، وقتل، وغير ذلك من صدّ عن أمر الله (عزّ وجلّ)؛ استثمر الشاعر النسق الدينيّ في فرض رؤيته؛ فإذا كانت الأقوام الأخرى كما وردت قصصهم في القرآن الكريم هم من لم يؤمنوا بالأنبياء، وحاربوهم، وقتلوهم وعذبوهم؛ والأنبياء يبلّغون أقوامهم من دون أيّ توانٍ، ويتحمّلون كلّ أدّى؛ فإنّ نصّ الشاعر يجسّد ما يهتمّ به؛ وهو أمر تبليغ الحقيقة الذي يريد به أن يشارك النّاس همّه هذا. فكلّ ما يعاينيه، ويتعذّب بسببه؛ هي الحقيقة المرة التي عاينها الأنبياء بسبب أقوامهم؛ فثقافة التبليغ يعبر عنها الشاعر عن معاناة لا تنفكّ ترافقه في كلّ وقت، وفي كلّ مكان يحلّ فيه؛ فالقضايا التي يريد طرحها الشاعر هي معاناة تقصّ مضجعه؛ فيستثمر نسقاً دينياً له ارتباطات ترافق بني البشر منذ الخليقة؛ وهي العزوف عن الحقّ، والصدّ عنه.

النتائج:

١. كشف البحث أنّ مرجعية أبي تمام جاءت لتسويغ أمورٍ ما؛ لأنها أدّت أغراضاً عدّة؛ منها الشرعية. وهذا أهمّها. ومنها فعل المعتصم.
٢. كشف البحث أنّ أبا تمام في اقتباسه تلك المرجعية القرآنية كان قاصداً لها.
٣. جاءت المرجعية القرآنية والدينية؛ لتشكّل الدلالة العامة في جلّ نصوصه، بما يشبه العلامات الرّمزية التي تشكّل الرّسالة؛ فأبو تمام تجاوز الاستشهاد، أو الاقتباس، أو غيرهما، وانفصل عمّا يمكن أن يسمّى الأفعنة والمرايا.

٤. كشف البحث أنّ لغة أبي تمام متأثرة تأثراً كبيراً بلغة القرآن الكريم، وكذلك التصوير عنده؛ فأبو تمام يتشرب الكثير من تصوير القرآن الكريم في نصوصه؛ فضلاً عن تشكّل الملكة اللغوية والمعجم الشعريّ لديه.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

- ، ببتزل بيرجر وآخرون، زيد.، (٢٠٠٩:). *التحليل الثقافي* (المجلد الأولي). (ترجمة: فاروق أحمد وآخرون، مراجعة وتقديم: أحمد، المحرر) القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة.
- ، ثناء نجاتي عياش، محمود السمرة. (م٢٣، العدد٢، ٢٠٠٥:). مدخل في النقد الأدبي، محمود السمرة، ٢٤٩. مجلة الجامعة الأردنية لدراسات العلوم الإنسانية.
- ، عدنان عبيد علي: ٩٦. (٢٠٠٠). *الأدب العربي بين الدلالة والتأريخ*. بيروت - لبنان.
- إبراهيم السمري. (٢٠١٨). *أبوتمام حياته وشعره*. القاهرة: شبكة الألوكة - قسم الكتب.
- ابن عساكر. (بلا تاريخ). *تاريخ دمشق*.
- إسراء خليل فياض (العدد الثالث والخمسون - ٢٠١٠). الصورة الشعرية في شعر ابن القيسراني. مجلة آداب المستنصرية، الصفحات ٥٨-١.
- أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت ١٧٠هـ). (١٩٨٨). *العين* (المجلد الأولي). (تحقيق د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، المحرر) بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية.
- أشرف حافظ. (١٤٣٣هـ _ ٢٠١٢م). *الهوية العربية والصراع مع الذات*، ،،. عمان_الأردن: دار كنوز المعرفة للطبع والنشر، ط١.

الصولي أبي بكر محمد بن يحيى، أخبار أبي تمام نشره وحققه وعلق عليه خليل محمد عساكر ، محمد عبده عزام ، نظير الإسلام الهندي، ١٩٣٧م .

جلال الدين القزويني الشافعي: . (٢٠٠٣). الإيضاح في علوم البلاغة، (المجلد الأولى) . بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

حبيب بن أوس. ((د.ت)). ديوان أبي تمام (المجلد الأولى) . (عبد الحميد يونس و عبد الفتاح مصطفى، المحرر) القاهرة: محمد علي صبيح وأولاده.

حسين مجيد رستم. (٢٠٠٨). المرجعيات الثقافية الموروثة في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، البصرة.

د. عبد الفتاح أحمد يوسف، . ((د.ت)). لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة: ١٦٣ . بيروت -لبنان.

سبيعي وبوزياني. (١ ٧، ٢٠١٩). المرجعيات الثقافية بين المفهوم والتوظيف. مجلة البحوث والدراسات، الصفحات 251-270.

عبد العال العبدوني. (٢٠٠٦). العلم والدين في الإسلام. الدار البيضاء ، المغرب.

عدنان عبيد العلي. (٢٠٠٠). الأدب العربي بين الدلالة والتأريخ: ٩٦ . النجف الأشرف: جامعة أهل البيت(ع).

علي كاظم محمد علي المصلاوي. (٢٠٠٦). أبو العلاء مؤثراً(دراسة تحليلية لتأثيره في الشعر الأندلسي): (المجلد الأولى). بغداد، العراق.

كليفرود غيرتس، ترجمة، محمد بدوي، . (٢٠٠٩). تأويل الثقافات. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

مجاهد مصطفى بهجت. (١٩٧٥). التيار الإسلامي في شعر العصر العباسي الأول. القاهرة: منشورات الأزهر الشريف.

مجيدي وهبه - كامل المهندس. (١٩٨٤). معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب (المجلد الثانية). بيروت لبنان.

محمد بن أبي بكر الرازيّ محمد. (١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م). مختار الصحاح (المجلد الخامسة). (تحقيق يوسف الشيخ محمد، المحرر) بيروت - لبنان: المكتبة العصرية - الدار النموذجية.

يوسف عليّات، ٢٠. (٢٠٠٩). النقد النسخي/ تمثيلات النسخ في الشعر الجاهلي. (المجلد ١). عمان ، الأردن: الأهلية للنشر والتوزيع.